مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

تاريخ انتشار الإسلام في افريقيا

تأليف يوري كبيشانف

ترجمة الدكتور نوفل علي نيّوف

هذه ترجمة لمقدمة كتاب (تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا) الذي وضعه الباحث الروسي يوري ميخائيلوفتش كبيشانف ونشره في موسكو سنة 1987 م.

ويهمنا أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى أن أهمية هذه الدراسة تكمن فيما يلي:

1 ـ أهمية الموضوع ومساحته التاريخية.

2 ـ القدر الكبير من الموضوعية في سرد المعلومات ومعالجتها.

3 ـ الاعتراف بقدرة الإسلام على تنظيم الحياة الاجتماعية المعاصرة (الزواج، الميراث، النظافة.. الخ..).

4 ـ الاعتراف بدور الإسلام في إلغاء نعرات التقوقع الأثني والقبلي، أي في إقامة وحدة وطنية هي أساس للدولة الفتية الحديثة.

5 ـ اعتبار الإسلام قوة تطويـرية وتنويرية تسرع حركة التمدن والتقدم.

6 ـ الإقـرار بعـظمـة الحضـارة الإسـلاميـة وبمـا حققـه الإسـلام من نجـاح وإنجازات خلال العقود الأخيرة.

ونذكّر القارىء بأن هذه الدراسة تنطلق في تقصياتها واستنتاجاتهـا من المنهج المادي التاريـخي الذي ينظر إلى الإسلام (والدين عامَّةً) بوصفه أيدلـوجيا، أي من الناحية الـدنيويـة لا غير. فهـو منهج يغلّب العـوامل الاقتصـادية والاجتمـاعية على العـوامل الـروحية والأخـلاقية، من حيث الفـاعلية في حـركة التـاريخ. ولـذلـك، فـالمؤلف يعتمد في تتبعـه تاريـخ انتشار الإسـلام في إفريقيـا، على النظرة النفعيـة القائلة بأن المصلحة هي التي توجه الجماعة وتحكم اختياراتها المصيريـة (الدينيـة والدنيوية) حتى ولو لم يكن الفرد يعي تلك المصلحة على نحـو مباشـر وجلي (من هنـا ينظر كبيشـانف إلى اعتناق الإسـلام في إفريقيـا على أنه يمثـل حـلاً لكثيـر من المشاكل الدنيوية، فيتجاهل قيمته الروحية وجانب الاقتناع الـذي يدفـع الناس إلى اعتناقه). ومن المنهج المادي التاريخي نفسه تنبع النظرة الطبقية الواضحة في هـذه الـدراسـة، التي تحـاول أن تـربط بين التـوحيـد وتـطور المجتمـع إلى المـرحلتين (الإقطاعية) و (الرأسمالية).

ويشير كبيشانف إلى ما يشاع من أنه كان هناك مسلمون مـارسوا في المـاضي تجارة الرقيق في إفريقيا، على الرغم من أن هذه القضية إشكاليـة وما تـزال موضـع خلاف بين المؤرخين حتى الآن.

وأيّا ما كان الأمر، فالدراسة تمثل وجهة نظر الآخر ولا نظنها تخلو من فائدة.

المقدمـة

منـذ أواسط الخمسينيات وحتى أواسط السبعينـات (من هـذا القـرن) كـانت تجري عمليات ما يسمى بتسيس الإسلام، مـع ما يـرتبط بذلـك التسيس من إضفاء للطابع الإسلامي على سياسة دول آسيوية وإفـريقية يقـطنها سكـان مسلمون. وقـد ازدادت عمليات التسيس هذه قوة في الثمانينيات على وجه الخصوص. وإذا كانت

هذه الظاهرة مفاجأة للكثيرين، فإنها لم تكن كذلك بالنسبة للمؤرخين الذين يدرسون ثقافة الإسلام السياسية والحياة التقليدية الاجتماعية والثقافية والدينية والأيدلوجية للشعوب الإسلامية. وعلى أية حال، فإن تاريخ الإسلام في بلدان آسيا وشمال إفريقيا معروف نسبياً بدرجة أكبر كثيراً من تاريخ الإسلام في إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء. واستجابة لاهتمام القراء المتزايد طُبع (أو أعيد طبع) عدد من الأبحاث المستفيضة والدراسات الجماعية المخصصة لإضاءة تاريخ الإسلام في إفريقيا، وذلك بالإنكليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات[1]. وتقدم هذه المطبوعات لوحة عن تاريخ انتشار الإسلام وتاريخ الدول الإسلامية الإفريقية، سواء منفردة أو في مجموعات. وتنحو هذا المنحى نفسه تلك الأبواب التاريخية التي تتضمنها مؤلفات ج. س. تريمنغهام[2]، أبرز متخصص إنكليزي في الإسلام وإفريقيا. وتتأتى قيمة هذه المؤلفات المكرسة لتاريخ الإسلام في إفريقيا من خبرتها في تحليل ونشر عدد كبير من المواد المغمورة والإشكالية والعسيرة المنال. غير أنها، للأسف لا تقدم لوحة مكتملة لتاريخ انتشار الإسلام في المنطقة الإفريقية.

على أن شمال إفريقيا دخل إطار الخلافة العربية منذ أواسط القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلاديين، في حين أنّ أثيوبيا قامت فجر الإسلام بدور رائد في تشكيل مناخ هذا الدين. واليوم تعتبر إفريقيا القارة الثانية في العالم، بعد آسيا، من حيث عدد المسلمين فيها (حوالي مائتي مليون مسلم) إن إفريقيا الشمالية

---

(1) (a) Cleark P.B. West Africa and Islam. A Study of Religions Development From the 8. the to the 20th Century. L., 1982.

(b) Coug J. Les musulmans en Afrique. P, 1975.

(c) Coug J. Islam en Ethiopie. Des Origines au XVIe Siècle. P., 1981.

(d) Lewis I.M. Introduction.- Islam in Tropical Africa. L., 1966.

(2) Trimingham J.S. A History of Islam in West Africa. L., 1982.

Trimingham Islam in Ethiopia. OXF., 1952.

Trimingham Islam in East Africa OXF., 1964.

Trimingham Islam in the Sudan OXF.; 1949.

Trimingham Islam in West Africa. OXF., 1959.

Trimingham The Sufi Ordens in Islam. OXF., 1971.

العربية التي يعيش فيها مائة مليون مسلم، هي واحدة من أقدم المناطق التاريخية في العالم الإسلامي، أما إفريقيا المدارية، فهي ميدان الانتشار السريع للإسلام. لقد كان عدد المسلمين فيها لا يتجاوز عشرة ملايين إنسان في مطلع القرن العشرين، على حين يقطنها الآن قرابة مائة مليون مسلم[3]. وأخيراً فإن هناك ثلاث جماعات إسلامية مختلفة هي: (أفارقة المالاي، والهنود وشعوب البانتو) تعيش في جنوب إفريقيا.

وتتفوق إفريقيا المدارية تفوقاً كبيراً على باقي مناطق العالم من حيث تكاثر الطائفة الإسلامية. كما أن نسبة المسلمين تتعاظم باستمرار بين جماهير السكان، ولا سيما في البلدان الواقعة شمال خط الاستواء وعلى طول ساحل المحيط الهندي. فالإسلام الآن هو دين أكثرية السكان (وليس دين أقلهم كما في مطلع القرن العشرين) في كل من نيجيريا الشمالية ومالي وسيراليون. إذ أن ثمة شعوباً بكاملها اعتنقت الإسلام خلال حياة جيل واحد، كما هو الحال، مثلاً لدى شعوب بوكومو في كينيا، وشامبالا في تنزانيا، وأقليات كثيرة من الجبليين في نيجيريا وشمال الكميرون. فقد اعتنق الإسلام في إفريقيا المدارية قائدا دولتين (بونغو في غابون، وبوكاسا في جمهورية إفريقيا الوسطى)، وزعماء قبائل، وشخصيات سياسية مرموقة. وحتى أولئك الذين ليسوا مسلمين بين هؤلاء، كثيراً ما يساهمون في نشاط المنظمات الإسلامية الدولية ويشجعون نشر الإسلام في بلدانهم، وذلك انطلاقاً من اعتبارات سياسية. وأخيراً فقد قامت محاولات لنشر الإسلام بالقوة في بلدان إفريقيا بكاملها (كما حدث في أوغندا أيام عيدي أمين). وإذا كان هناك، خلال الستينيات والسبعينيات، عدد من دول الحزام السوداني الإفريقية التي يشكل المسلمون أغلبية السكان فيها ويحكمها قادة غير مسلمين، فإنه مع مرور الزمن، إما أطيح بأولئك القادة، أو أنهم تخلّوا عن السلطة طوعاً وحلّ محلهم مسلمون.

وتنقسم دول إفريقيا اليوم، من حيث انتشار الإسلام فيها، إلى المجموعات الست التالية:

---

(3) Barret D.B. Analytical Methods of Studing of the Religions Expantion in Africa. -JRA. 1970, Vol 3, fase. 1.

1 ـ البلدان العربية في إفريقيا، حيث يعتبر الإسلام دين الدولة (بما في ذلك موريتانيا وشمال السودان)؛ وينضم إلى هذه المجموعة جمهورية تشاد التي يُشكِّل فيها العرب أكبر الأقوام الأثنية، وإن كانوا لا يشكلون أكثرية السكان، وكذلك دول شاطىء المحيط الهندي الثلاث وهي: الصومال، وجيبوتي، وجزر القمر، حيث الإسلام هو دين الدولة أيضاً:

2 ـ دول الحزام السوداني الخمس التي يشكل المسلمون أكثرية سكانها، وهي: (السنغال، وغامبيا، وغينيا، ومالي، والنيجر).

3 ـ دول إفريقيا الغربية الست، حيث المسلمون أكثر عدداً من المسيحيين، ولكنهم لا يشكلون الأكثرية، وتلك الدول هي: (نيجيريا، وغينيا بيساو، وسيراليون وليبيريا، وجمهورية ساحل العاج، وبوركينا فاسو).

4 ـ دول حزام إفريقيا الاستوائية الست، حيث تحتل الأقوام الإسلامية، رغم أقليتها، مواقع هامة في الحياة الاقتصادية والسياسية، وهي (أوغندا، وجمهورية إفريقيا الوسطى، وغابون، وغانا، وتوغو، وبنين)؛ وإلى هذه المجموعة تنتمي الأقاليم الوسطى في الكاميرون وعاصمتها مدينة ياوندي.

5 ـ دول إفريقيا الشرقية الثلاث، حيث للأقلية الإسلامية فعالية ذات وزن، وهناك نجد مناطق ومساحات أثنية كاملة تقطنها أكثرية إسلامية (أثيوبيا، وكينيا، وتنزانيا التي تنضم إليها المنطقة الحدودية الشمالية من موزامبيك).

6 ـ البلدان الأخرى في إفريقيا:

خلال مائة وخمسين عاماً الماضية كانت المجموعة الأولى من البلدان تزداد على حساب الثانية (فمثلاً، تعاظم عدد الناطقين بالعربية بين سكان السودان وتشاد)، أما المجموعة الثانية فازدادت على حساب المجموعة الثالثة.

وبكلمات أخرى، فإن الإسلام والثقافة العربية إلى جانب اللغة العربية هي ظواهر تمتد نحو الجنوب، إلى إفريقيا المدارية، بل حتى الاستوائية.

كيف يفسر هذا الانتشار الواسع للإسلام في القارة الإفريقية؟ لقد حاول

الإجابة على هذا السؤال بحاثون كثيرون. وكقاعدة، كان العلماء الغربيون يعزون هذا الأمر إلى وجود قربى مميزة بين الإسلام من جهة، والطقوس والثقافات الإفريقية من جهة ثانية. فمثلاً كانوا وما زالوا يشددون على حالات مثل تعدد الزوجات في المجتمعات التقليدية الإفريقية والمجتمعات الإسلامية؛ وعلى بساطة العبادات في الإسلام (قياساً إلى ما هي عليه العبادات في المسيحية) بساطة اندماج المسلم الجديد في الجماعة الإسلامية (إذ لا حاجة به لتعلم الأقانيم، ولا للاعتراف، بل ولا يُطلب منه التخلي عن إيمانه السابق بتعدد آلهة الوثنية، على أن تعدد الآلهة ليس معروفاً إلا في عدد قليل من مناطق إفريقيا)؛ البساطة النسبية للتراتبية الدينية، سواء في السماء أو في الأرض، ذلك أنه لا يوجد في الإسلام طبقة كهنة تمثل الوسيط بين المؤمنين وربهم، كما هو الحال في المذهب الكاثوليكي أو لدى كهنة الأديان التقليدية؛ التشابه المعلوم بين الجمعيات الدينية السحرية السرية التقليدية والأخويات الروحية، والتشابه نفسه قائم بين السحرة التقليديين ـ أي كهنة هذه الجماعات ـ والمرابطين (في الصومال هم الوداديون، وفي السودان هم الفقراء)، تعديل الإسلام تقديس الأجداد والإيمان بالأرواح المحلية... الخ.

لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أن الإسلام هو، أولاً: دين فائق التطور، بل هو الدين الأكثر شباباً بين الأديان العالمية، إذ أنه ظهر في قلب عالم القرون الوسطى تحديداً. وقد تمثل هذا الدين خبرة ألف عام من عمر الأديان الأخرى، بما في ذلك الأديان العالمية، بل استطاع أن يوظف هذه الخبرة وأن يطورها. والإسلام، ثانياً، ليس مجرد دين بالمعنى الضيق للكلمة، أي بوصفه نسقاً من الطقوس والمعتقدات الدينية، بل إنه إلى ذلك أيديولوجية دينية سياسية، ونمط حياة، وحضارة توحد مئات الملايين من البشر في آسيا وإفريقيا. وهكذا، فإن الإسلام يتضمن أفكاراً كثيرة تنتمي إلى مجالات الدين والأيديولوجيا والقانون والأخلاق والثقافة، وهي أفكار لا وجود لها في الأديان والثقافات الإفريقية التقليدية أو أنها لم تلق فيها تطويراً ذا شأن.

فإذا ما قارنا هذه الأديان والثقافات الإفريقية التقليدية بالحضارة الإسلامية،

فإنه لا يجوز التقليل من مستوى تطورها (كما كانوا يفعلون في حالات كثيرة أيام الاستعمار) ولا المبالغة فيه. إنّ الأديان الإفريقية التقليدية تنتمي في معظمها إلى صنف الأديان المتعددة الآلهة، وذلك ما تتميز به المجتمعات ما قبل الطبقية. فالأشخاص الخارقون في هذه الأديان هم أرواح مختلفة (بما في ذلك أرواح المكان وأرواح الأجداد، وأرواح ظواهر الطبيعة... الخ)، ولكنهم ليسوا آلهة. إن الأديان المتعددة الآلهة هي من صفات المجتمعات التي لم تبلغ مستوى الحضارة. غير أنه في معظم المجتمعات الإفريقية وقبل المرحلة الاستعمارية كانت هناك حضارات ابتدائية Protocivilisation أصيلة، بل بدايات حضارات أو (حضارات تقريباً، ذلك أن الحدود بين الحضارات الابتدائية وبدايات الحضارات هي حدود شكلية جداً)[4]. ففي مواطن حضارات إفريقيا الغربية (السودان الغربي والأوسط، ومنطقة خليج بنين) وما بين البحيرات (بوغاندا) قامت أديان تجسد الإله في عدد من الأشخاص. غير أن الحضارات الابتدائية وبدايات الحضارات كانت تختلف عن الحضارتين الإسلامية والأثيوبية بافتقارها إلى كتابة متطورة. فالأديان الافريقية التقليدية، سواء المتعددة الآلهة، أو تلك التي جسدت الإله في شخص واحد، لم تكن مناسبة تماماً لتصبح أساساً لنظام يملي تعاليمه الروحية على الكادحين لصالح طبقة المستغلين (الإقطاعيين) وهي في طور التشكل.

لا يجوز، من حيث الجوهر، أن نستخدم تعبير العناصر الطبقية أثناء دراسة المجتمعات الإفريقية التقليدية إلا بخصوص حوادث في أساطير متفرقة (على شكل قائمة أساطير) وبعض التحريمات السائدة لدى فئة من الجماعة المغلقة، ولا سيما تقديس سلطة الحاكم وشخصه. فقد كانت الاتحادات السرِّيَّة في عدد من مجتمعات إفريقيا تُسْتَخْدَم أيضاً بصفتها وسائل إرغام (غير اقتصادي) (بما في ذلك الإرغام الروحي). وإلى جانب ذلك فإن هذه العبادات التقليدية، أو عناصرها إذاً كانت وسائل ضبط لحياة المجتمعات المعنية.

كانت المجتمعات الإفريقية تعتنق الإسلام بوصفه ديناً وحضارة، حين كانت

---

(4) يوري كبيشانف. الحضارات الإفريقية: التشكل والنمو. إفريقيا: التراث الثقافي والعصر موسكو، 1985 م.

تنتقل من التشكيلة الإقطاعية المبكرة إلى المجتمع الطبقي الذي كان لزاماً عليها أن تجد الأيديولوجيا الدينية السياسية المناسبة لها فيه، وما ينقصه من عناصر الحضارة. وعـدد هذه المجتمعـات ـ التقليديـة الآخـذة في الانهيـار ـ ليس قليـلاً في إفـريقيـا المعـاصـرة، إلى الجنـوب من الصحـراء. وفي هـذا المجـال تتنـافس المسيحيـة والإسلام، حيث هناك عدد كبير من شتى أنواع العوامـل التي تدخـل في حسم هذا الرهان: لأي من هذين الدِّيْنَيْن العالميين ستكون الغلبة؟

يحدث أحياناً أن يعتنق الإسـلام أكثـر أعضاء المجتـمع التقليدي وجاهة، أي الزعمـاء والأعيـان وفي أكثر الحالات أقرب منافسيهم، أي إخوتهم الأصغر وخصـومهم في الصراع على السلطة. وفي الأحـوال الأخـرى يكـون أول من يعتنق الإسلام هم الرجال الشباب الذين ينزحون إلى المدن والبيارات ومناجم المعـادن، حيث يعيشون ويعملون جنباً إلى جنب مع المسلمين وبعدئذٍ يعودون إلى قراهم الأم، هنـاك يقودون النضـال تحت راية الإسـلام ضد القـادة التقليـديين من زعمـاء ومسنين وكهنة. وهذه الطريقة تميـز شعب بوكـومو في كينيـا بوجـه خاص[5]. فعنـد جيـرانهم الجنوبيين، أي الميجيكنت، كـان أول من اعتنق الإسـلام هم العنـاصـر البـرجوازيـة الصغيـرة في القـرى، أي أصحـاب المـزارع الميسـورون وأصحـاب الحـوانيت الخ..[6] وهـذه الطريقـة معروفـة أيضاً في إفـريقيا المـدارية. أمـا عنـد الجيران الشماليين للبوكومو، أي أورمورو من قبيلة بـوران في مقاطعـة سيولـو، فإن انتشار الإسلام كان مرتبطاً بإعادة توجيه العلاقات الثقافية وبتأثيـر الصومـاليين. ففي الأربعينات من هذا القـرن كان كثيـرون من شباب بـوران الذين في سيـولو يعـدون أنفسهم مسلمين، ثم أصبـح هؤلاء أكثريـة ما بين (1951 -1953 م). ومن المعـروف أن التجار المسلمين (وفي هذه الحالة هم الصـوماليون وأبنـاء أرومو الـذين أصبحوا صوماليين) هم الذين قاموا بدور الدعاة للإسلام. والسائد أيضاً أن المنظمة الدينيـة

Towensend N. Age, Descent and Elders among the Pakomo. - Africa. 1977, Vol. 47, (5) Pt. U, (PP. 394- 395).

(6) Parkin D. Polities of Ritual Syncretism: Islam among the man- Muslim Giryama of Kenya.- Africa, 1970, Vol. 40. Pt3. P. 225.

التقليدية في هذه القبيلة كانت تعاني من أزمة. إذ أن صلات بوران أسيولو مع أبناء قبيلتهم في جنوب أثيوبيا كانت قد انقطعت، حيث كان يوجد مقر أرفع كاهنين للبوران ويسميان كاللو. فقد أخفق هذان الكاللو في تعيين ممثلين لهما في أسيولو، رغم أن وجهاء أسيولو كانوا قد طالبوهما بذلك. عندما فقدوا نفوذهم في أوساط الشباب بسبب غياب دعم الكاهنين لهم[7]. وفي ظروف هيمنة منظمة مجموعات الشباب البالغين (وبالدرجة الأولى مجموعة المحاربين الشباب) عند البوران والبوكومو والشعوب الأخرى في كينيا، انضم إلى المسلمين الشباب، وعلى نحو جماعي أترابهم الذين كانوا يطمحون إلى التحرر من رقابة الوجهاء المسنين.

وفيما يخص شعوب منطقة المحيط (كينيا وتنزانيا) التي تتكلم لغة البانتو فإن أول من اعتنق الإسلام بينهما، كما يشهد مثال الميجيكيين، هم أناس ميسورون ولكنهم ليسوا من الأعيان، وهم على صلة ما بالتجارة التي تعتبر عملاً تقليدياً للمسلمين السواحليين[8]. ومن الممكن أن يكون الإسلام قد انتشر فيما مضى بنفس هذه الطريقة بين السواحليين أنفسهم. وحين ينقل المؤرخون الملاحظات الخاصة بالقرنين التاسع عشر والعشرين إلى العصور الوسطى فإنهم يحاولون إحياء لوحة انتشار الإسلام بين مختلف فئات المجتمع السواحلي. إليكم، إذاً، كيف يتحقق ذلك على يدي ف. م. ميسيووغن وهو يصف دولة ياتي (كينيا) السواحلية في العصور الوسطى: (إن فئات السكان الحديثة المنعمة في المدن السواحلية كانت قد اغتنت بواسطة التجارة، فلم يعد في مقدورها الاعتماد، في الدفاع عن حقوقها وممتلكاتها، على النظام التقليدي الاجتماعي الأيديولوجي الذي كان في أيدي العائلات الأرستقراطية العريقة، ولذلك فإن ممثلي الفئات المالكة الجديدة يعتنقون الإسلام بمحض إرادتهم، إذ أنهم يعرفونه من خلال اشتغالهم بالتجارة. أما جمهور السكان المحرومين والمظلومين والذين يزداد استغلالهم من جانب

---

(7) Baxter. P.T.W. Acceptance and Rejection of Islam among The Boran of the Northern Frohtier District of Kenya.- Islam in Tropical Africa. Ed. ey 1.M. Lewis. L., 1966, P.235- 250.

(8) المرجع السابق، ص 235 -250.

العائلات الارستقراطية، بحكم التنافس بين الفئات المالكة القديمة والجديدة، فإنه أيضاً يميل إلى الإسلام، لأنه يرى في انتشار هذا الدين تحطيماً للأعراف الاجتماعية القديمة. . وهنا، في هذه التغيرات الاقتصادية الاجتماعية تحديداً، يكمن سبب انتشار الإسلام بين سكان شاطىء إفريقيا الشرقي)[9].

غير أن هناك أيضاً جزءاً من الارستقراطية القديمة المنتمية إلى بدايات الإقطاعية التي كانت وثيقة الصلة بالأديان التقليدية السابقة على الإسلام (في أثيوبيا كانت مرتبطة بالصيغة المسيحية المحلية وبالأديان التي تمازجت مع المسيحية واعتنقتها في الأطراف الشمالية والجنوبية من البلاد) وهو جزء اعتنق الإسلام في ظروف معلومة، بل وتزعم قيادة التجمعات الإسلامية. ذلك أن عبادة القديسين وتأليه الملوك والزعماء الكهنة كانت الشكل الأكثر شيوعاً للدين الطبقي، من حيث الجوهر، وفي إفريقيا قبل انتشار الإسلام والمسيحية. وتعتبر تلك العبادة أساساً للحكم المطلق الوليد حينها، أي للعنصر المركزي للدولة الإقطاعية (بدايات الإقطاع) وأداة إرغام أيديولوجي جبارة ضد المنتجين الصغار الذين يدفعون إيجاراً. وكانت هذه العبادة تعوض جزئياً عن ضعف الإرغام الذي تمارسه الدولة (من خارج الاقتصاد). إن عبادة الملك المقدس كانت تضمن البقاء له ولحاشيته الطفيلية بوصفها فئة استغلالية. أضف إلى ذلك أن ما يرتبط بهذه العبادة من مختلفة أنواع الطقوس والتحريمات كانت تقيد شخصية (الملك) إلى حد يجعله يتحول إلى شخصية رمزية محض، مجردة من السلطة الحقيقة ومن الحق في الحياة المستقلة عموماً. وكان ذلك يجرده أحياناً حتى من حقه في الحياة نفسها، باعتبار أنه كان لا يجوز أن يعالج طبياً، بل في مرات عديدة كان ينصح بحرمانه من الحياة ما إن تظهر عليه أولى أعراض الشيخوخة أو الضعف الجسدي. ولذلك فإن تغيير الدين كان له في أعين هؤلاء الملوك التعساء جاذبية لا يستهان بها. وبفضل التمازج الواسع الانتشار كان بوسعهم بعد اعتناق الإسلام شكلياً، أن يتخلصوا من الطقوس

---

(9) ميسيوغن ف. م. الأخبار السواحلية عن دولة باقي في القرون الوسطى. في كتاب ثقافة ولغات شعوب إفريقيا. مجموعة دراسات أتنوغرافية إفريقية، رقم 6، إصدارات معهد الأتنوغرافيا، 90. موسكو ـ لينغراد، 1966 م.

والتحريمات الأكثر مضايقة لهم وأن يحتفظوا بـالعناصـر الأساسيـة في عبادة الملك المقدسة بوصفها وسيلة إرغام روحية.

وكان هناك سبب آخر يُشجِّع الأرستقراطية القديمة على اعتناق الإسلام، هـو انتشار هذا الدين بين مواطنيها. وفي ظل الإقبال الجماهيـري على اعتناق الإسـلام بين صفوف العامة في جماعـات المزارعين ومـربي الحيوانـات، كان يعتنق الـدين الجديد كذلك العائلات الحاكمة أو أفخـاذ من تلك العائـلات فقط، كما فعـل مثلاً أمراء، وكهنة قبيلة هبب في شمال أرتريا[10] وبوجا وغوراغي[11] كبيـرا كهنة الإلـه، والكاهنان القائدان كاللو من أرومو (وهذه الشعوب الثلاثة كلهـا تعيش في أثيوبيـا). ومعـروف أنه بعـد الانتقال إلى الإسـلام فإن عـائلات الكهنـة في واحـد من فـروع هبب، وعـائلات كبـار الكهنة عنـد غوراغي، وأرومـو وبعض الشعوب الأخـرى قد تحولت إلى سلالات مشايخ مسلمين.

إن ما أشرنـا إليه أعـلاه من عوامـل اقتصاديـة واجتماعيـة وسياسيـة لا يحتفظ بفاعليته وحسب، بل يزداد قوة في ظروف إفريقيا اليـوم. وهي عوامـل تساعـد على انتشـار الإسـلام ابـان عمليـة التغييـرات التي تجـري في المجتمعـات الإفـريقيـة التقليـدية. وإلى جـانب ذلك، فقـد دخلت المعترك عـوامل جـديدة تتعلق بهجـوم العلاقات الرأسمالية وتأثير الأيديولوجيات المعاصرة.

إن نزعات التقدم في إفريقيا المعاصرة كثيراً مـا تتخذ في الـوعي الاجتماعي شكـل الانتقـال من (الـوثنيـة) إلى المسيحيـة أو الإسـلام. وهـذا يعني أن الأديـان العالمية، بما في ذلك الإسلام والمسيحية، تمثل خطوة أكيدة إلى الأمام بالمقارنـة مع الأديان التقليدية، ما قبل التوحيدية، التي تخضع لها خضوعـاً كبيراً جـداً جميع جوانب حياة الجماعات الإفريقية.

ولا يتنـاقض ذلك حتى مـع مـواقعـة كـون الاعتقـادات الـدينيـة، والشعـائـر والطقوس المنحدرة من الأديان ما قبل التوحيدية، تظل ثابتة غاية الثبات، ذلك أنهـا

---

(10) ترينمنغهام، الإسلام في أثيوبيا، أكسفورد، 1952، ص 112.

(11) Shack W.A. Gurage: the People of Ensete Cultivation. L., 1966. P. 190- 194.

تتحول وتتعايش مع الصيغ الحياتية المحلية التي يجيء بها الإسلام أو المسيحية. ويستمر الإيمان كذلك بالسحر والنبوءة، وبشفاعة أرواح الأجداد والملوك المقدسين أمام رب السماء. وقد حلّ وظيفياً محل الساحر العراف مرابط مسلم مخصوص بقوة صوفية أي بالبركة)، فهو يشفي من مختلف الأمراض، ويفسر الأحلام التنبوئية، ويكتب ويبيع الأحجبة وأختام القرآن (وهي تمائم مكتوب عليها آيات قرآنية). أما الملوك المقدسون التقليديون الذين اعتنقوا الإسلام رسمياً، مثل مور ـ نابا في بوركينا فاسو، فإنهم ما زالوا يمثلون في أعين رعاياهم آلهة حية، سواء كان الرعايا (وثنيين) أو مسلمين أو مسيحيين.

إن المؤمنين الأفارقة، شأنهم شأن أكثرية المسلمين في المناطق الأخرى، ما زالوا حتى الآن يتوجهون بالصلاة إلى النبي ﷺ بالذات، بوصفه صانع معجزات أو روحاً خيراً ووسيطاً بينهم وبين الله رب السماء البعيد والغامض بالنسبة لهم(*). وبنفس هذه الطريقة تماماً يصلي كثيرون منهم لأرواح الأجداد.

وبصفة عامة، فإن أفكار الآخرة، أي الحساب والجنة والنار. . الخ، نادراً ما تطورت في الأديان الإفريقية التقليدية، رغم أنها أفكار تقوم بوظيفة تعويضية في الأديان. وبهذا يستخدم دعاة الإسلام هذه الميزة الهامة التي يمتاز بها دينهم على الأديان الإفريقية التقليدية. فهم ينشرون تعاليمهم القائلة بأن المؤمن الذي يلتزم بأركان الإسلام يذهب بعد وفاته إلى الجنة ليتمتع فيها أبداً بجميع مسرات الحياة الدنيا. أما الأديان التقليدية فإنها لا تعرف نظيراً لهذا كله، بل هي تحتقر شخصية المؤمن (الذي لا يكاد يتميز من الجماعة بوصفه فرداً) والتصورات الغامضة حول حياة الإنسان البسيط بعد الموت.

إن أفكار المساواة التي يتضمنها الإسلام تجتذب الشرائح المظلومة بين

(*) لقد حافظنا على هذه الفكرة كما هي ليظهر جلياً مدى جهل المستشرقين، أو تجاهلهم لجوهر العقيدة الإسلامية وأركانها. فهم يصورون المسلمين لمواطنيهم وكأنهم يقيمون الصلاة للرسول ﷺ من دون الله تعالى، ويلمحون إلى أن تجريد الله عز وجل من الملموسية والصفات يجعل الأمر غامضاً، وهذا نمط سائد في التفكير الغربي الذي يستغرب كل ما هو مفارق للتثليث والتجسيد المعروفين في الديانة المسيحية. المترجم.

السكان. ذلك أن العمل والدخل الذي يجنيه المزارع والحرفي والتاجر يعتبر مباركاً وطيباً في الإسلام إذا كان الربح المتحقق من ذلك مساوياً للجهد المبذول. وجميع المؤمنين متساوون فيما بينهم، بوصفهم عبيد الله، وهم يقفون في صفوف متراصة متساوية أثناء الصلاة لا يتقدمهم إلا إمام المصلين.

ويحاول بعض رجال الدين الإقطاعيين منذ أربعة عشر قرناً من عمر الإسلام أن يجعلوا منه سلاحاً أيديولوجياً في استغلالهم للفلاحين. وإلى جانب ذلك، فإن من هم أبعد نظراً منهم كانوا يبذلون قصارى جهودهم بغية تمويه هذا المسعى الاستغلالي، فيحجبونه أو يخففون من وقعه لما يجتذب الفلاحين من أفكار حول القيمة الدينية الرفيعة للعمل الزراعي، وبالمطالبة بالإخلاص والعدل وفعل الخير والتواضع ومنع انتهاك الأحكام القرآنية، وبتحريم الربا والبذخ والاعتداء على أسرة المسلم وممتلكاته... الخ.. وبين الحين والحين، وبينما كانت سلطة الدولة تتجاهل وصايا الإسلام هذه الغالية على قلوب الفلاّحين، كانت الحركات الجماهيرية الإسلامية تعيد طرح هذه المطالب وتأكيدها من جديد في الوقت نفسه. إن هذه الحركات في شمال إفريقيا والصحراء الغربية كانت إلى درجة معلومة وفي أوقات مبكرة من تاريخ تطورها، تتمثل في الخوارج الصفريين والعباديين خلال القرنين الثامن والتاسع، ثم في الفاطميين الإسماعيليين في القرنين التاسع والعاشر، وبعدئذ في حركة المرابطين خلال القرن الثاني عشر... الخ، وصولاً إلى الجمعيات الروحية(*) الإسلامية في العصر الحديث. وفي إفريقيا المدارية والصحراء الوسطى فإن هذه الحركات الدينية التي يقودها، بشكل عام، جمعيات روحية، إنما يعود تاريخها إلى القرنين الأخيرين.

لقد تشكلت طبقة الفلاحين تاريخياً بوصفها الطبقة الأساسية في المجتمع الإقطاعي في الحزام السُّوداني (ما عدا السودان الشرقي) وفي الصومال وشرقي أثيوبيا وفي جزر ساحل إفريقيا الشرقي (إنما ليس في شمال أثيوبيا وبين البحيرات

(*) ما يعنيه المؤلف بتعبير (الجمعيات الروحية) هنا هو: (الطرق الصوفية) بكل أشكالها وتفرعاتها. المترجم.

وفي حزام السافنا الجنوبية)، وكان تشكلها هذا مرتبطاً إلى حد كبير بانتشار الإسلام في هذه المناطق. إن من كان في البداية يعتنق الإسلام (في تآلفه مع العبادات التقليدية) في المجتمعات الإقطاعية المبكرة هو القيادات الحاكمة التي كانت تتحول تدريجياً إلى طبقة الإقطاعيين. أما بخصوص التشكلات الفلاحية المبكرة[12] فإنها كانت تعتنق الإسلام بوتيرة إبطاء على الرغم من أن أديانها التقليدية كانت تتآلف بفضل تأثير الإسلام. على أن الفئات العليا في المجتمعات الإفريقية الإقطاعية ظلت حتى نهاية المرحلة الاستعمارية تتميز عن الفئات الدنيا باتساع انتشار الإسلام بينها. غير أن تطور مختلف جماعات التشكلات الفلاحية المبكرة إلى طبقة فلاحية قويت شوكتها قبيل مرحلة الاستعمار وأبانها (في الأقاليم الإسلامية من أثيوبيا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى ثورة 1974م) إنما تُرافق بتغلغل أعمق لأفكار الإسلام في وعي هذه الطبقة، ولنمط الحياة الإسلامية في حياتها.

إن الإسلام، بوصفه أيديولوجية دينية سياسية، يطرح على معتنقيه الأفارقة الجدد عدداً لا يستهان به من النظريات والأفكار التي تعتمد في جملة من الحالات إما على عناصر المساواة التي عرفتها مرحلة فجر الإسلام، وعلى نظريات معاصرة مثل (الاشتراكية الإسلامية) و (الاقتصاد الإسلامي)، وإما على تقاليد إسلامية محافظة وطبقية النظرة، من حيث جوهرها. وهذا ما يتيح للديمقراطيين الثوريين والرجعيين الإصلاحيين، وشتى ضروب البرجوازيين أن يستشهدوا بالقرآن والأحاديث النبوية والمراجع الأخرى التي يقرها الإسلام المتشدد، بغية تسويق سياستهم العملية ودعمها بالحجة. وفي بلدان إفريقيا المدارية هناك أيضاً تقاليد نضال التحرر القومي ومعاداة الاستعمار تحت راية الإسلام، وذلك ما سوف نتحدث عنه بعد قليل.

ثمة أيضاً واقعة سيكولوجيا بالغة الأهمية، فحواها أن الإسلام في النظر

---

(12) يوري كبيشانف. الفلاحون و (أوائل الفلاحين) في إفريقيا مجلة (آسيا وإفريقيا اليوم) 1982 م. العدد الأول.

الإفريقي ليس أيديولوجيا دينية سياسية تنتمي إلى أوروبا وأمريكا بل إلى إفريقيا وآسيا. وعندما كانت أحزاب الأممية الثانية (الأحزاب الأوروبية الفرنسية والبريطانية والبلجيكية) تشكل حكومات الامبراطوريات الاستعمارية وترسل حكام المستعمرات إلى إفريقيا، كانت الدول الإسلامية (باستثناء الدولة العثمانية، والمغرب في مطلع العصر الحديث، وكذلك مصر محمد علي باشا وخلفائه في سنوات 1820 -1881) لا تشارك مباشرة في تقسيم إفريقيا استعمارياً وفي نهبها. أما المناطق التي كانت فيها حركة الاستعمار المبكرة، ما قبل الإمبريالية، تجري تحت ستار الإسلام، كما في أثيوبيا والمناطق الجنوبية من السودان في ظل الحكم المصري، فإن تقاليد مقاومة الاستعمار لا تقتصر على عناصر العداء للأوروبيين، بل للمسلمين أيضاً. ولهذا العنصر حضوره كذلك في مناطق أخرى من إفريقيا الوسطى والشرقية، حيث ما تزال حية ذكريات الناس عن مسلمين كانوا يتاجرون بالعبيد.

وأخيراً، فإن للإسلام في إفريقيا مراكز فكرية سياسية ضخمة (الرباط وفاس في المغرب، سوكوتو في نيجيريا، ماسينا في مالي، وإلى حد ما مركز المهديين في أم درمان بالسودان. .الخ) يتزعمها قادة جمعيات روحية كبيرة جداً إن هؤلاء القادة، وعدداً كبيراً من (آل بيت) النبي محمد ﷺ وورثة قادة جماعات إسلامية آخرين، إنما يعتبرون حملة مميزين (بركة) تمنحهم نفوذاً فكرياً وسياسياً أيضاً.

إن للدور التوحيدي الذي يقوم به الإسلام أهمية اجتماعية وسياسية ذات شأن في ظروف إفريقيا المعاصرة جنوب الصحراء، حيث تتكون بعض الدول من مجموعات أثنية متباينة. الإسلام المتشدد يعتبر جميع المسلمين أعضاء متساوين في أمة واحدة هي الأمة الإسلامية. ومن خلال السعي إلى نشر الإسلام بين الأقليات القومية في منطقة الغابات في كل من غينيا وشمال نيجيريا أو جنوب السودان نجد أن قادة هذه البلدان يحاولون حل مشكلة سياسية هامة هي: إضْعاف نزعات التقوقع الأثني داخل دولهم الفتية التي تشكو من ضعف في التجانس والوحدة، على أن نشر الإسلام بين هذه الأقليات والجماعات الدينية والأثنية كثيراً ما

يمهد لتمازجها الأثني وذوبانها في بعضها بواسطة الشعوب الإسلامية في هذه البلدان الإفريقية.

وهناك أيضاً قوة جذب هامة بالنسبة للبيروقراطية الإفريقية تتمثل في ثقافة الإسلام السياسية وما تتميز به من نظام راقٍ ومحكمٍ لمعالجة القضايا الاجتماعية والتأثير الروحي. فالدول الإفريقية الفتية في أمس الحاجة لدعم سياسي من قبل الدّين التشريعي الذي هو الإسلام.

غير أن المسألة أكثر تعقيداً في إفريقيا المدارية فيما يتعلق بالموقف من الإسلام بوصفه نمط حياة تحدده الشريعة تحديداً صارماً، فتجعل الفروق في تطبيقه قليلة بين مختلف البلدان الإسلامية رغم تباينها. فمن هذه الناحية يتطلب الإسلام من الإفريقي الذي اعتنق الإسلام حديثاً أن يتخلى عن عدد من العادات والتقاليد القديمة (مثل أكل لحوم بعض الحيوانات الكاسرة والخنازير المنزلية، وشرب الخمر، وحرية العلاقة بين الجنسين.. الخ) والاحتفاظ بعدد آخر منها (كالطهور، وتعدد الزوجات، ودفع المهر لوالد العروس.. الخ) أضف إلى ذلك أن فرض الصلاة خمس مرات في اليوم، وصيام رمضان، وطقوس الوضوء والطهارة...، هي أمور تنظم حياة المؤمنين الأفارقة وتغرس في وعيهم مفاهيم جديدة عن الزمان والمكان. إن الشريعة الإسلامية قادرة على أن تكون وسيلة فعالة في تنظيم الحياة الاجتماعية بفضل نموذج الأسرة الذي تقترحه هذه الشريعة وتعطي فيه الدور الأول للأب ثم تحدد علاقات الزواج بين الجنسين ومسألة الميراث داخل هذه الأسرة تحديداً منضبطاً صارماً ولا تكون معايير نمط الحياة الإسلامية سهلة أحياناً بالنسبة لبعض الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، أي بالنسبة للشباب والأشخاص الذين تلقوا العلم في أوروبا وأمريكا غير أن نشر الإسلام تدريجياً في بعض البلدان والشعوب، ووجود جماعات متباينة في درجة تمسكها الحرفي بالتعاليم الإسلامية مما يسهل عملية القبول التدريجي والجزئي لنمط الحياة الإسلامية، بل حتى أحياناً ولحجاب المرأة أيضاً (كما في مدن شمال نيجيريا والنيجر وتشاد).

وأخيراً فإنه يطيب لكثيرين من الأفارقة الذين لهم نصيب معين من التعليم أن

يكـونوا منتمين لحضـارة الإسلام العـظيمة التي لهـا نفوذ عـالمي هائـل لا تجـاريـه الحضارات الإفريقية (باستثناء الحضارة الأثيوبية وقليل غيرها).

ونحن هنـا لا نتصدى لمعـالجة مثـل هذه الحضـارات، ولا حتى لتفرعـاتهـا الإفريقية[13] إذ أن قضايا تطور النماذج والتكـاتف في إفريقيـا بين الإسلام والأديـان المحليـة وقضايـا ما هـو إسلامي من لاهـوت وفلسفـة وقـانـون وأدب وعمـارة وفي منـظمات إسـلامية، وكـذلك التـاريخ الاجتمـاعي والاقتصـادي والسيـاسي للدول الإسلامية في إفريقيا ما قبل الاستعمار، وكذلك أموراً أخرى لا نتعرَّض لها ألا بقدر ما تكون ذات صلة مباشرة بانتشار الإسلام في المنطقة الإفريقية أو في بعض أجزائها. فالكتاب الذي نقدمه يمثل دراسة موجـزة لتاريـخ انتشار الإسـلام في إفريقيـا خلال العصـور الوسـطى والعصر الحـديث أي بدءاً من القـرن السـابـع الميـلادي وحتى الحرب العالمية الأولى. إذ أن التعرف على ثلاثة عشـر قرنـاً من تاريـخ انتشار هـذا الدين في القارة الإفريقية يساعدنا كثيراً على فهم ما حققه الإسلام من نجاح خـلال العقود الأخيرة.

ولا شك في أننا نـرى في هذا الانتشـار (كما في كثيـر من الظواهـر الأخرى) تسريعاً لإيقاع التطور التاريخي. إن العالم الإنكليزي الشهير ج. س. تـريمنغهام، المتخصص في تاريخ الإسـلام، يقدم اللوحـة التاليـة لمراحـل انتشار الإسـلام في إفريقيا:

1 ـ مرحلة انتصار الإسلام في إفريقيا (638 -1050).

2 ـ مرحلة تغلغل الإسلام في الحزام السوداني (1050 -1750).

3 ـ عصـر الثيـوقـراطيـات والـدول التي كـان فيهـا الإسـلام دين الـدولـة (1750 -1901 م).

4 ـ مرحلة الاستعمار وما بعده[14].

---

(13) يوري كبيشانف. المرجع رقم (4).

(14) Trimigham J.S. The Phase of Islamic Expanation and Islamic Cultural Lones in Afri- ca. - Islam in Tropical Africa . L., 1966, P.127- 139.

ويمكن أن نوافق على هذا التقسيم بعد أن نضيف إليه بعض التعديل. فنحن نقسم (مرحلة الاستعمار وما بعده) إلى ثلاث مراحل أساسية هي: نهاية العصر الحديث منذ (1870 -1901 حتى 1917 -1918)، ثم المرحلة الاستعمارية الأحدث (1917 ـ 1918 ـ 1956 ـ 1960)، تليها مرحلة ما بعد الاستعمار.

فإذا ما تَغاضَيْنا عن لجوء العرب إلى القوة لنشر الإسلام في شمال إفريقيا (وللدقة فإن هذه العملية لم تَنْتهِ في سنة 1050)، فإن كل مرحلة من هذه المراحل التي يحددها ج. س. تريمنغهام كانت أقصر من سابقتها بكثير. وبالجملة فإن هذا يتناسب مع تعاظم وتائر نشر الإسلام في إفريقيا خلال عملية الانتقال من العصور التاريخية الأبكر إلى عصور أقرب. إلا أن هذه العملية لم تكن تتطور بخط مستقيم أبداً، وإنما سارت بتعقيد كبير، كما سنحاول أن نبين في متن هذا الكتاب.